الحمدُ لله حمدًا كثيرًا ليس له انتِهاء، نحمدُه -سبحانه- على ترادُفِ النِّعَم والآلاء، الحمدُ لله حقَّ حمدِهِ حمدًا يُوافِيهِ دُون وَعدِهِ وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رفعَ شأنَ بعضِ خلقِه للتأسِّي والاقتِداء، وأشهدُ أن نبيَّنا وسيِّدَنا وقُدوتَنا مُحمدًا عبدُ الله ورسولُه خيرُ البريَّة في السِّيرة البَلْجاء، اللهم فصلِّ عليه صلاةً تُوفِّي حقَّه وكِفاء، وبارك يا ربَّنا على آله السَّامِين الأوفِياء، وصحبِه الأكرَمين النُّجَبَاء، ومن تبِعَهم بإحسانٍ يرجُو بالجِنانِ الارتِقاء، وبالأبرارِ الالتِقاء، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم اللِّقاء، معاشِر المسلمين: في عالَمٍ يمُوجُ بالفِتَنِ والاضطِراب، ويعُجُّ بالفِرَق والطوائِفِ والاحتِراب، كلٌّ يدَّعِي الحقَّ واحتِكارَ الحقيقةِ والصواب، ويرَى من نفسِه أنه القُدوة، وبه تكونُ الأمة والأُسوَة. ومع كثرة التحدِّيَات والأزمَات، والتحوُّلات والمُتغيِّرات، يحتاجُ المرءُ إلى تلمُّس طريقِ النجاة، وإعمالِ النَّقل والعَقل في أمورِه مع الحِلمِ والأناةِ، وهنا تبرُزُ من بين الثَّنايَا قضيَّةٌ من أهمِّ وأعظم القضايَا، هي سببُ خيرِ الأفرادِ والمُجتمعات، وتشييد الأمجادِ والحضارات، ألا وهي: قضيَّةُ الأُسوة والقُدوة، والتأسِّي والاهتِداء، والاتِّباع والاقتِداء، وهي قضيَّةٌ ما أعظمَها وأجَلَّها! قال بعضُ أهل العلم: "سِيَرُ الرِّجال أحبُّ إلينا من كثيرٍ مِن الفقهِ."

معاشِر المُؤمنين: لقد أولَى القرآنُ الكريمُ موضوعَ القُدوةِ اهتِمامًا كبيرًا، وعنايةً بالِغةً؛ فحثَّ على الاقتِداء والائتِساء بالرُّسُل والأنبياء، فقال عزَّ مِن قائل: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] قال الإمامُ الطبريُّ رحمه الله: "فبالعملِ الذي عمِلُوا، والمِنهاجِ الذي سلَكُوا، وبالهُدى الذي هديناهم، والتوفيقِ الذي وفَّقنَاهم اقْتَدِه؛ أي: فاعمَل وخُذ به واسْلُكْه". فإنه عملٌ لله فيه رِضًا، ومِنهاجٌ مَن سلَكَه اهتدَى، ووصَفَ بعضَ عبادِه المُصطَفَين الأخيار بالإمامةِ؛ إيماءً أنهم أهلٌ للاقتِداء والتأسِّي، فقال سبحانه: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [الأنبياء: ٧٣]، وقال مُخاطِبًا إبراهيم عليه السلام: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة: ١٢٤] قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: "قامَ إبراهيمُ -عليه السلام- بجميعِ الأوامِر، وترَكَ جميعَ النَّواهِي، وبلَّغ الرِّسالةَ على التمامِ والكمال، فاستحَقَّ بهذا أن يكون للناسِ إمامًا يُقتدَى به في جميعِ أحوالِه وأفعالِه وأقوالِه، قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الممتحنة: ٤].

وأساسُ القُدوة ينبُعُ مِن داخِلِ النفسِ، فيكونُ الإنسانُ قُدوةً في نفسِه، {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ٤٤]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢، ٣]

وغيرُ تقِيٍّ يأمُرُ النَّاسَ بالتُّقَى * * * طبِيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهْوَ سَقِيمُ

ومنها: القُدوةُ المُقيَّدة، وهي تصِحُّ لكلِّ واحدٍ يتَّصِفُ بصِفةٍ حسنةٍ؛ كالكرمِ والشجاعةِ ونحوِها. أمة الإيمان: وأهمُّ أنواعِ القُدوة وأجَلُّها وأعظمُها: القُدوةُ المُطلَقة، وتعنِي: الاقتِداء بالشخصِ في كل أفعالِه وأقوالِه وتصرُّفاتِه، ولا تصِحُّ لأحدٍ إلا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ فلقد تمَّت به القُدوة، وتألَّقت في أبهَى وأسمَى صُورها في شَخصِه صلى الله عليه وسلم، فجعلَ الله التأسِّيَ به من علاماتِ الإخلاصِ لله سبحانه والإيمانِ باليومِ الآخر.